نوابغ الفكر العربي

٢٠

Türkiye Diyanet Vakfı
İslâm Araştırmaları Merkezi
Kütüphanesi
Prof. Dr. Nihad M. ÇETİN Bölümü

ابن المقفع

بقلم حنا الفاخوري

إمام من أئمة الفكر عصَرَ عقله مختلف الثقافات واستخلص منها زبدة الدهور في الفلسفة والسياسة والاجتماع.

Türkiye Diyanet Vakfı
İslâm Araştırmaları Merkezi
Kütüphanesi
Prof. Dr. Nihad M. ÇETİN Bölümü
Demirbaş No: 3068
Tasnif No: 921 MUK

دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر دار المعاف بمصر

الفصل الأول

عصر ابن المقفع

١ ــ البيئة السياسية

اضطربت الحالة السياسية اضطراباً شديداً فى آخر العهد الأموى ، وعمت الفوضى فى البلاد لضعف السلطان وتضافر القوى المختلفة والأحزاب المتباينة على مناوأة بنى أمية . ففى كل ناحية ثورة وفتنة ؛ وفى كل ضاحية جيوش توقع بجيوش ، ومطامع تصطدم بمطامع ؛ وفى خراسان عاصفة علوية تهب للمطالبة بالخلافة ، متنكرة شديد التنكر للعهد القائم على أنه جورٌ وخروج عن تقاليد الخلافة الحقة ، وتطاول على الروح الإسلامية فى الحكم . وفى هذه الغمرة من الفوضى والاستياء العامّ ، تحرّك بنو العباس ، ولهم من قرابتهم التى تصلهم بالنبى العربى والإمام علىّ ابن أبى طالب حافز ونصير ، ولهم من مطالبة الشيعة بالخلافة فرصة سانحة ؛ وقد لجأ إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله العباسى إلى أبى مسلم الخراسانى ، فأوفده إلى خراسان سنة ٧٦٤ م ، ليبث الدعوة ويذكى نيران الاستياء والهياج ، فتوجه أبو مسلم إلى قبيلة خزاعة هناك ، ثم راح يضرب فى البلاد ويدعو لبنى العباس حتى انضمّ إلى صفوفه خلق كثير ، فاستولى على مدينة مرْو ، وسار يريد نيسابور فدخلها سنة ٧٤٨ م ، ومشى من نصر إلى نصر مع قائده قحطبة بن شبيب الطائى . وهكذا مشى العباسيون يرفعون الراية السوداء من مكان إلى مكان والنصر حليفهم ، وإذا أبو العباس فى مسجد الكوفة ينادى بنفسه خليفة ، وإذا الزّاب الأعلى يشهد حطمة مروان الثانى الخليفة الأموى ، وإذا بلاد الشام كلها تضج بجيوش الثائرين ، وإذا أبو فطرس يشهد استئصال شأفة الأمويين ما عدا

عبد الرحمن ، صقر قريش ، مؤسس الدولة الأموية فى الأندلس .

قامت الدولة العباسية إذن على القوّة ، وأطلق أبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور شرارة السخط ، ولجآ إلى القسوة والبطش ، وأعملا السيف فى الرقاب فى غير هوادة ولا رحمة ، وكانا بحاجة إلى علماء ومفكرين يوجهون السلطان ، ويسنّون الشرائع ، ويستخلصون الحقائق من جواء الاضطراب ؛ وهكذا كان ابن المقفع عيناً ترى ، وأذناً تسمع ، ولساناً ينطق ، ويداً تشير وتوجه .

واستعانت الدولة العباسية بالفرس خاصة والشعوبية عامة ، وبالعرب المناهضين للدولة الأموية ممن يناصرون الهاشميين ، فشالت كفة العرب والعروبة ورجحت كفة الأعاجم ، واقتصر شأن العرب على أن يكونوا عنصراً من العناصر الكثيرة التى احتوتها الإمبراطورية ، وتغلغل الفرس فى صُلب الدولة .

ولما نقلت العاصمة إلى بغداد تحوّل وجه الدولة عن البحر المتوسط ، وتوجه شطر فارس ، وأدخل الفرس على العرب سياسة الحكم المطلق ، وجعلوا قصور الخلفاء فى بغداد أشبه بقصور الأكاسرة فى المدائن ، كما أدخلوا طرائق الفرس فى تنسيق الدواوين ، وأساليب الحرب ونظم الحكم . فتحولت الأنظار عن العرب وعاداتهم وتقاليدهم ، وانفتحت على الجديد والاستفادة منه ، ونشأت من ثمّ النزعةُ إلى التجديد ، وعلت المناداة بمذهب التخيُّر ، أى تخير أحسن ما فى الحضارات القديمة غير العربية ، وتوسيع الصدر لها والعمل بها . فراح الفرس يستغلون نفوذهم ، ويتطاولون على العرب ، ويرفعون الرأس بعد زمن طويل قضوه فى المهانة والذل والاستياء ؛ وامتدت الأنظار إلى الحضارات القديمة غير العربية ، وإلى مفاخرة العرب بما لدى الفرس من تاريخ ، وبما لدى الهند من حكمة ، وبما لدى اليونان من فلسفة ، ثم إلى جعل المحل الأول بعد الخليفة للفرس وو زرائهم وولاتهم وقوادهم وجنودهم . وهكذا كان ابن المقفع عيناً ترى ، وأذناً تسمع ، ولساناً ينطق ، ويداً تشير وتوجه .

٢ — البيئة الاجتماعية

ولما كان العهد عهد انتقال وتمازج سريع وإرهاب شنيع ، كثر التزلف ، وتوافرت الوشايات والسعايات ، وعمّ الكذب والنفاق ، فكان لا بد لأولى الأمر من مرشدين يهدونهم سواء السبيل فى اختيار العمال ، وتفقد أمور الرعية ، وتنظيم القضاء تنظيماً صالحاً ، واستمالة الجنود ، وحسن توزيع المال ، وإقامة ميزان العدل ؛ وكان لا بد للرعية من التعاون لدفع الظلم والأذى ، والحفاظ على الحقوق ، والتقيد بقيود العقل . فكان ابن المقفع عيناً ترى ، وأذناً تسمع ، ولساناً ينطق ، ويداً تشير وتوّجه .

ولما كان العهد عهد تراخ فى الأخلاق ، وتمادٍ فى التسرى ، ولما أصبحت السبايا فى الشوارع والأسواق ، ملء الشوارع والأسواق ؛ ولما أضاعت المرأة رصانتها وباعت شرفها ، وفقدت حياءها ، وراحت تنصب الأشراك ، وتقوم بكل لون من ألوان الدهاء والخداع والإغراء ، كان لا بد للأمة ممن ينبه ويحذر ويلجم . فكان ابن المقفع عيناً ترى ، وأذناً تسمع ، ولساناً ينطق ، ويداً تشير وتوجه .

٣ — البيئة الثقافية

وكان ذلك العهد عهد انفتاحٍ ونقل وترجمة ، وقد بدأت تلك الحركة فى أواخر العهد الأموى ، وراحت تمتد شيئاً فشيئاً على توالى الأيام حتى أصبحت من ضروريات الحياة العباسية ، وحتى أصبحت الثقافة العربية تتألف من عناصر مختلفة .

« فى هذه الثقافة الإسلامية عنصر يونانى ، والعقل اليونانى ميال إلى فلسفة

التعليل والتحليل ، وميله إلى المعنويات أكثر من ميله إلى الماديات . . . وفى هذه الثقافة الإسلامية عنصر هندى انتقل إليها من طريقين : أما أولهما فطريق الهنود أنفسهم بعد الفتح الإسلامى ، وأما ثانيهما فطريق الفرس الذين كانوا قد تأثروا بالفلسفة الهندية منذ فتوح الإسكندر الأكبر ، ثم نشروا ثقافتهم الفارسية الممتزجة بالعنصر الهندى بعد الفتح الإسلامى . والفلسفة الهندية فلسفة تأمل ، والعقل الهندى عقل دينى قبل كل شىء ؛ والأفكار الهندية — فيما يقول الباحثون — هى إلى الخيال أقرب منها إلى الواقع ، وهى إلى أن تكون أفكاراً ملائمة للشعر أقرب منها إلى أن تكون أفكاراً ملائمة للعلم . . . وفى هذه الثقافة الإسلامية عنصر فارسى ، وهذا العنصر نفسه مؤلف من جزئيات ثلاث هى : الفارسية واليونانية والهندية . ولكن الحضارة الفارسية مادية فى أكثرها ، وبنايات الفرس الهائلة وأبهتهم العظيمة تبهرك حقًّا وتروعك حقًّا ولكنها لا تدلك على معنى وراء ذلك . وفى الثقافة الإسلامية عنصر سوريانى ، ولكنه يونانى فى أكثره . . . ومهما يكن من شىء فإن الذى اتفق عليه الباحثون فى أمر الثقافة الإسلامية هو أن أقوى العناصر التى تتألف منها عنصران هما العنصر الفارسى والعنصر اليونانى [1] » .

تمازجت العناصر العربية والفارسية والهندية واليونانية، وكان منها ذلك البناء الضخم فى الثقافة العباسية والحضارة العباسية ، فكان ابن المقفع من أعظم الممثلين لذلك التمازج ؛ وقد وجد فى تراث قومه الفرس جميع المواد التى كان بحاجة إلى تسييرها فى الإمبراطورية العربية : وجد العقل اليونانى والعقل الهندى والعقل الفارسى ، فضمها إلى العقل العربىّ ؛ ومن اللغة الفهلوية نقل إلى العربية جميع ما نقل ، فكان للعقل العربى خلاصة تلك العقول ، اغتذى بها وتوجه بها إلى القمة التى كان يرمى إليها .

(١) عبد اللطيف حمزة : « ابن المقفع » . ص ٢٦ — ٢٩ .

تلك كانت البيئة التى عاش فيها ابن المقفع والتى وجهت قلمه فى النقل والكتابة . كانت بيئة انتقال وقسوة ، بيئة نفوذ فارسى ، وتراخٍ أخلاقى ، وتمازج بين الشعوب والعقول ، فكان أبداً عيناً ترى ، وأذناً تسمع ، ولساناً ينطق ، ويداً تشير وتوجه .

الفصل الثانى

ابن المقفّع فى عصره

١ — حياة ابن المقفع

ا — مولده

لم تبلغنا أخبار ابن المقفع إلا مضطربة ، مقطّعة الأوصال ، وجيزة إلى حد يصعب معه تتبع الرجل فى مختلف مراحل حياته . وجُل ما عُرف عنه أن حياته مرحلتان : مرحلة أموية دامت نحواً من خمس وعشرين سنة ، ومرحلة عباسية دامت نحواً من عشر سنوات ، والمرحلة العباسية هى مرحلة الإنتاج الفكرى فيما أن المرحلة الأموية هى مرحلة التحصيل والتأمل والمراقبة .

وُلد رُوزْبِه نحو سنة ٧٢٤ م — ١٠٦ هـ فى قرية بفارس اسمها « جور » وهى فيروزأباد الحالية . ومعنى اسمه بالفارسية « المبارك » . وكان اسم أبيه دَاذُويه وكان داذويه متولياً خراج فارس من قِبَل الحجاج فضربه الحجاج بالبصرة لمال احتجنه حتى تقفّعت يده فعرف بالمقفع [1] ، وعرف ابنه بعده بابن المقفع . ولما أسلم رُوزْبِه سمى عبد الله وكنى بأبى محمد .

ب — نشأته

هذا من جهة اسمه وأصله . أما نشأته فكانت فى فارس إلى جنب أبيه ، يسعى فى تحصيل الثقافة الفارسية ويدين بالزرادشتية على مذهب المجوس

(١) وهناك رواية أخرى ضعيفة تقول إن اسمه : ابن المقفع بكسر الفاء المشددة لأن أباه كان يعمل القفاع ويبيعها . والقفاع جمع قفعة وهى شىء يعمل من الخوص شبيه الزنبيل لكنه بغير عروة . والقول الأول أى بفتح الفاء المشددة هو المشهور بين العلماء .

ثم انتقل إلى البصرة وكانت مباءة رجال العلم والأدب ، وفيها المربد منتدى الأدباء والشعراء ، واتصل بآل الأهتم وهم أهل فصاحة ولسَن ، فكان مولى لهم يغترف من بلاغتهم ويتصل بالأعراب ويقوّم لسانه على نطقهم ، وهكذا تعلم العربية وتدرب على أساليب الفصاحة والبلاغة ؛ واجتمع له عاملان هامان : عامل الثقافة الفارسية وفيها ثقافة اليونان والهنود ، وعامل الفصاحة العربية . فقابل العالَم الجديد بسلاحين قويين : سلاح الفكر وسلاح اللسان .

ج — بدء شهرته

وما هو إلاّ زمن قصير حتى طار للشاب الفارسى صيت فى العلم والفصاحة ، وكان الأمويون من أشد الناس التجاء إلى الموالى للاستفادة من أقلامهم وتوليتهم كتابة الدواوين ، فلجأوا إلى ابن المقفع ، فكتب ليزيد بن عمر بن أبى هبيرة والى العراق من قِبَل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وقيل إنه كتب أيضاً بعد موت يزيد لأخيه داود بن عمر بن أبى هبيرة وإنه بقى مدةً من الزمن يكتب لهذا الأمير فى دواوينه بكرمان . وهكذا شهد ابن المقفع عن كثب كيف انهارت الدولة الأموية ، فشهد السعايات والمؤامرات ، وعرف كيف تتقلب الأيام وتدول الدول ، وعرف الأدواء الخفية والظاهرة التى تفتك بجسم الأمم والدول ، وكان أبداً عيناً ترى ، وأذناً تسمع ، ولساناً ينطق ، وقلماً يسجل .

د — اعتناقه الإسلام

دارت الأيام دورتها فإذا العباسيون على عرش الخلافة ، وإذا القسوة تضرب أطنابها ، وإذا ابن المقفع يرى من الضرورى ، مجاراة للأحوال ، أن يلبس لباساً جديداً ، فيتصل برجال الدولة الجديدة ويعتنق الدين الجديد ليكون له من ذلك كله طريق سهل إلى غايته التى يهدف إليها . فاتصل برجال الدولة الجديدة وكتب